وما زال رسول الله يعلمنا

التفاؤل في غزوة الخندق

تاريخ النشر في جريدة أخبار الخليج: 4 يوليو 2015

بقلم: د. زكريا خنجي

لا يوجد أبلغ من قول اللّه تعالى وهو يصف حال المسلمين في غزوة الخندق من الآيتين الكريمتين (10 و11) التي وردتا في سورة الأحزاب، إذ يقول تعالى «إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون باللّه الظنونا * هنالك ابتليَ المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً»، كيف لا وقد حاصر مدينة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ما لا يقل عن عشرة آلاف مقاتل مشرك ليس ذلك فحسب وإنما هذا العدد قابل للزيادة وذلك بخيانة اليهود والمنافقين ووقوفهم في صف واحد مع المشركين، وحتى تكتمل الصورة فإن عدد المسلمين – في أفضل الأحوال – لم يكن يزيد على ثلاثة آلاف فرد، موزعين ما بين من يحفر الخندق ومن يحرس في نقاط الحراسة، وفرق للقتال، وكتائب للمقاومة، هل يمكن أن نتصور ماذا يجرى ؟

العالم المعروف آنذاك جاء بكل غضه وغضيضه، عدد كبير من القبائل العربية واليهود والمنافقين ومن يحالف قريش، كل تلك الجيوش تحركت لهدف واحد وهو القضاء على دولة الإسلام وقتل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. حاصر المشركون المدينة المنورة مدة ثلاثة

أسابيع قضاها المسلمون ما بين الجوع والخوف والعنت، حتى كما قال تعالى «وزلزلوا زلزالاً شديداً»، ونحن نعلم بلاغة القرآن وأن الكلمة لا تكتب إلا وهي ذات تعبير قوي وواضح للحدث، نعم زلزل الصحابة جميعهم.

وعلى الرغم من كل هذا الموقف، فإن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لم يغرس التفاؤل والأمل في نفوس هذا المجتمع، بل جعلهم يتفاءلون ويرفع هممهم، ويكبر أهدافهم، فيجب أن يفهموا أن حياتهم لن تتوقف عند هذا الحصار بل سينتصرون ويحكمون العالم قاطبة.

عن البراء بن عازب، قال: لما كان حين أمرنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بحفر الخندق، وعرضت لنا في بعض الخندق صخرة عظيمة شديدة لا تأخذ فيها المعاول. قال: فاشتكينا ذلك إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم، فجاء رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، فلما رآها ألقى ثوبه، وأخذ المعول، فقال: بسم اللّه ثم ضرب ضربة فكسر ثلثها، وقال: اللّه أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، واللّه إني لأبصر قصورها الحمر الساعة، ثم ضرب الثانية فقطع ثلثًا آخر، فقال: اللّه أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، واللّه إني لأبصر قصر المدائن الأبيض، ثم ضرب الثالثة، وقال: بسم اللّه فقطع بقية الحجر، وقال: اللّه أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، واللّه إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا الساعة.

هل هناك تفاؤل أكثر من هذا ؟